

آليات الحجاج في فكر مالك بن نبي، كتاب شروط النهضة أنموذجاً

Mechanisms of Argumentation in the Thought of Malik Bennabi: "Conditions of Renaissance" as an Exemplar.

دحماني فاطيمة الزهراء^{1*}، مهدي منصور²

¹ مخبر الخطاب الحجاجي وأصوله ومرجعياته و آفاقه في الجزائر

جامعة ابن خلدون - تيارت (الجزائر)، dahmani.fatouma@univ-tiaret.dz

² جامعة ابن خلدون - تيارت (الجزائر)، mehidi_m77@yahoo.fr

تاريخ النشر: 2024/03/30

تاريخ القبول: 2024/03/23

تاريخ الإرسال: 2023/06/09

ملخص:

نروم من خلال هذا البحث تسليط الضوء على جانب مهم من جوانب الحجاج، ألا وهو الآليات الحجاجية التي تتنوع بين آليات لغوية، وأخرى بلاغية وثالثة تداولية، والغرض من توظيفها في خطاب المتكلم هو التأثير في المتلقي وحمله على الاقتناع بما يمليه عليه المخاطب، وبالتالي يمكننا الإشارة إلى أن هذه الآليات كان لها دور مهم في الدرس الحجاجي، هذا الأخير الذي يعد ظاهرة لغوية قديمة ظهرت منذ الحضارة الآثينية، وعليه ارتأينا الحديث في هذه الورقة البحثية عن الحجاج عند الغرب وعند العرب، ثم سنتحدث عن أهم آلياته مركزين عليها في فكر مالك بن نبي، من خلال كتابه (شروط النهضة).

الكلمات المفتاحية: الحجاج; الآلية; الفكر; شروط النهضة; مالك بن نبي.

ABSTRACT :

This research endeavors to illuminate a fundamental facet of argumentation – the argumentative mechanisms that manifest as linguistic, rhetorical, and pragmatic devices. Their purpose in the speaker's discourse is to sway the audience and persuade them of the arguments being put forth. These mechanisms have played a pivotal role in the ancient art of argumentation, which traces its origins back to Athenian civilization. Within this study, we will delve into the realm of argumentation within both Western and Arab contexts, with a specific emphasis on the pivotal mechanisms. Our exploration will be informed by the insights of Malek Bennabi, as elucidated in his work titled "The Conditions of the Renaissance."

Keywords: argumentation; mechanisms; thought; Conditions of Renaissance; Malik Bennabi

1. مقدمة:

شهدت الساحة النقدية تحولات كبيرة في مجال الدراسات اللغوية، وذلك بعد ظهور محاضرات دي سوسير التي كانت الفيصل بين الدراسات الكلاسيكية والدراسات المعاصرة، فظهرت مناهج علمية متعددة، جعلت من النص الأدبي المنبع الذي ينهل منه اللساني ذخيره اللغوية ويؤسس عليه افتراضاته النظرية، ولعلّ أبرز هذه المناهج، المنهج التداولي وعلاقته بالنظرية الحجاجية خاصة نظرية الحجاج التي حولت اللغة من أنها وسيلة تواصل إلى وسيلة إقناع وتأثير ومحاكاة، حتى غدا الحجاج من أهم النظريات التي أولاها الباحثون عناية كبيرة في العالمين الغربي والعربي.

وتشير معظم الدراسات اللغوية والنقدية إلى أنّ مسار توظيف الحجاج ليس حديث العهد، بل له جذور ضاربة في أعماق التاريخ، وبالضبط منذ ما قبل الميلاد، وبالذات في الحضارة الإغريقية التي اتسمت بالفلسفة وعلم المنطق مع أفلاطون، وجورجياس، وفودور، وسقراط وأرسطو الذي تميزت مؤلفاته عن غيره باستعمال الحجاج كآلية أو دعامة للدفاع عن أفكاره، حتى ألف كتاباً في الخطابة، ترجم إلى العربية إلى "فن الخطابة"، ومنهم من ترجمه إلى "الريطوريكا"، ومنهم من قال "فن البلاغة"، ومهما تعددت العناوين المترجمة، يظل الحجاج هو الموضوع الذي يسم معظم ما جاء في مؤلف "فن الخطابة أو الريطوريكا".

وبناء على الأهمية الكبيرة للحجاج والتداولية والتواصل، وهم الثلاثي الذي لا يفترق على حد تعبير أبي بكر العزاوي الباحث الحجاجي المغربي، ارتأيت أن أعالج موضوع الحجاج وآلياته الإقناعية في كتاب شروط النهضة للمفكر الجزائري مالك بن نبي

إشكالية البحث:

تتمثل إشكالية البحث في الأسئلة الآتية:

- ماهي أهم الآليات الحجاجية التي وظفها مالك بن نبي في كتابه شروط النهضة حتى حقق ما حققه من تغيير على الصعيد الفكري والاجتماعي؟

فرضيات البحث:

- التعريف بمصطلح الحجاج عند الغرب وعند العرب.
- تقسيم الآليات الحجاجية إلى: منطقية، بلاغية، أسلوبية، حجج جاهزة.
- إسقاط آليات الحجاج على مدونة كتاب شروط النهضة للمفكر الجزائري مالك بن نبي.
- أهداف البحث:

- الوقوف على بعض التعاريف النظرية للحجاج.
- الكشف عن بعض الآليات الحجاجية الموظفة في كتاب شروط النهضة.
- الاهتمام بعلمائنا العرب، وبخاصة علماء الجزائر.
- ربط التراث العربي بالدراسات الحجاجية المعاصرة.

منهجية:

أما عن منهجية هذا البحث، فقد اعتمدنا على المنهج الوصفي في الجانب النظري، والمنهج التداولي في الجانب التطبيقي، كونه المنهج الأنسب لهذا النوع من الدراسات، ولماذا المنهج التداولي؟ فلأننا سنعتمد في دراستنا على أركان العملية التواصلية التداولية (المتكلم، والمخاطب، والسياق) من خلال مدونة البحث "شروط النهضة".

1. ماهية الحجاج:

يمثل الحجاج والتداولية أهم المحطات البحثية التي استوقفت العديد من الباحثين والنقاد، إن على مستوى الموضوعات الأدبية أو الموضوعات اللسانية، لما له من حضور مشترك في كلا التخصصين، ولم تعد البحوث الحديثة تبحث ماهية الحجاج والتداولية في المعاجم العربية أو الغربية، وذلك أن التعاريف كلها تتفق على أن مفهوم الحجاج هو غلبة الخصم بتقديم الدعامات والدلائل القوية لإفحامه لغويا، على أساس أن الحجاج اللغوي يقوم على الممكن والمحتمل، لا على المنطق أو اليقين، لذلك فحري بنا أن نتعرض إلى الحجاج في الاصطلاح، فما معناه عند الغرب؟ وعند العرب؟

1.2 الحجاج في الاصطلاح:

إن مفهوم الحجاج مفهوم متشعب يصعب تحديده بدقة، إذ لم يبق مصطلحا محصورا في «استعمالات خطابية ظرفية، بل صار بعدا ملازما لكل خطاب على وجه الإطلاق، والسبب في ذلك أن كل خطاب حال في اللغة، تمنحه هذه الأخيرة العناصر الأولية والقاعدية لكل حجاج، أي عناصر الاستدلال والتدليل»¹، لذلك نجد اختلافا كبيرا واضحا في تعريفاته، يرجع ذلك إلى المجالات التي تعتمد على الحجاج، فلكل مجال زاوية نظر خاصة به، إذ نجد الحجاج في الخطاب الأدبي يختلف عن الخطاب الفلسفي أو القانوني أو السياسي وغير ذلك، وبالتالي كل مجال قدّم تعريفا حسب مرجعيته ورؤيته الخاصة به.

1- عند الغرب:

يعرفه بوتون فيليب على أنه «نشاط إنساني، يتخذ أوضاعا تواصلية متعددة، ووسائل متنوعة، ويهدف إلى إقناع شخص أو مستمع أو جمهور ما، بتبني موقف ما، أو مشاركة في رأي ما»².

الحجاج argumentation إذا هو "فن الإقناع"، وهو إجراء يستهدف من خلاله شخص ما حمل مخاطبه على تبني موقف معين عبر اللجوء إلى حجج arguments تستهدف إبراز صحة هذا الموقف أو صحة أسسه، فهو إذا عملية هدفها إقناع الآخر والتأثير عليه convaincre، ووسيلتها الحجج arguments، الحجة arguments هي دليل إثبات أو نفي قضية ما، والحجج قسمان: الحجج المنطقية وتسمى الاستدلال raisonnement، مثلا استدلال استنتاجي أو استدلال بالمماثلة، والحجج الواقعية وتسمى الدليل preuve مثلا واقعة أو شهادة³.

إذا فالحجاج هو عبارة عن عملية تواصلية تداولية يسعى من خلالها المتكلم إلى إقناع المخاطب المتلقي بفكرة معينة، أو وجهة نظر معينة، وتبني موقف معين عن طريق استخدام حجج وبراهين تدعم رأيه وتثبت صحته.

يعرفه دومينيك مانغينو dominique maingueneau بأنه آلية موجهة إلى جعل بعض النتائج مقبولة من قبل جمهور معين في ظرف معين»⁴، وهو ما استشعرناه عند مالك بن نبي إذ يعتمد في إيصال أفكاره، وبثها داخل المجتمع العربي، بغرض إقناع المتلقي بضرورة التعبير والزحف نحو الأفضل.

2- الحجاج عند الغرب:

1.2 عند أرسطو:

يعدّ أرسطو عمدة العملية الحجاجية، حيث ألف كتاب الخطابة الذي يعتبر من أبرز المصادر التي اعتمد عليها جل الدارسين بعده واستمدوا منه أغلب النظريات البلاغية والفلسفية، فقد أرسى من خلاله العديد من التصورات والآراء التي أسهمت في تطوير البحث اللغوي.

تناول أرسطو الحجاج من خلال زاويتين متقابلتين إحداهما بلاغية والأخرى جدلية، بحيث انطلق مفهوم أرسطو للحجاج من منطلقات منطقية استدلالية أعطت لنظريته صدى واسع، وهو يقع بين الحجاج الإقناعي بالتأثير فيه، كما ميّز بين التأثير في الذهن الذي موضوعه الجدل والتأثير في الإرادة الذي موضوعه الخطابة، فالجدل يستعمل البرهان وسيلة لتحقيق اليقين عبر الاستدلال، ومنه الاقتناع، وهي قناعة ذاتية دون تأثير، الخطابة تحدث الإقناع بواسطة تمرير المحتمل (la vraisemblable) إلى الأذهان⁵.

وبالتالي يمكننا القول بأنّ أرسطو يربط بين الجدل والخطابة، فهي عنده «تشبه الجدل بل هي جزء منه»⁶، والبلاغة عنده تهتم بالأمور التي نتحاور بشأنها، ولا تتوفر على صناعات خاصة بها وتتوجه إلى مستمعين عاجزين عن الفهم التركيبي في حضرة عناصر كثيرة وعن الاستدلال المتصل خلال لحظات مسترسلة»⁷.

ونستنتج مما سبق أنّ أرسطو قسم الحجاج إلى قسمين حجاج جدلي، وآخر خطابي، ويكون بذلك قد تناوله من خلال زاويتين متقابلتين، إحداهما بلاغية والأخرى جدلية.

2-2: نظرية الحجاج عند ديكر:

يعد ديكر من مؤسسي نظرية الحجاج منذ 1973، إذ يعتبرها نظرية لسانية تهتم بالوسائل اللغوية وبإمكانيات اللغة الطبيعية التي يتوفر عليها المتكلم، وذلك بقصد توجيه خطابه وجهة ما يمكنه من تحقيق بعض الأهداف الحجاجية، ثم إنها تنطلق من فكرة مفادها: أننا نتكلم عامة بقصد التأثير⁸، فهدف الحجاج عنده هو التوجيه l'orientation، وهو على مستويين⁹:

- السامع: فعندما نتكلم فالغاية هي السامع: التأثير في السامع أو مواساته أو إقناعه أو جعله يأتي عملاً ما، أو إزعاجه أو إحراجه وغير ذلك.

- الخطاب: إنّ الحاجة من أجل الحصول على النتيجة "ن" بواسطة "أ" إنما هي ضرب من تقديم "أ" على أنها ينبغي أن تؤدي بالمتلقي إلى تتبع "ن" وجعل "أ" علة لاعتقاد "ن".

انطلاقاً من هنا يمكننا الإقرار بأنّ هذه النظرية تنطلق من مسلمة أنّ اللغة تحمل بصفة ذاتية وجوهرية وظيفة حجاجية، وبعبارة أخرى هناك مؤشرات عديدة لهذه الوظيفة في بنية الأقوال نفسها¹⁰.

3.2. عند بيرلمان chaimperlman وتيتيكا Tyteca:

يعد بيرلمان وتيتيكا من أبرز الذين تحدثوا عن الحجاج، إذ «يمثل كتاب مصنف الحجاج... البلاغة الجديدة، المنشور سنة 1970، لشايم بيرلمان وأولبريشت- تيتيكا أهم محاولة لتجديد النظرية الحجاجية الأرسطية»¹¹، بعد أن أهملت هذه النظرية لقرون عديدة، جاء هذا الكتاب الذي يمكننا اعتباره فتحاً جديداً في عالم الخطابة الجديدة، وكذلك يعد أهم محاولة لتجديد النظرية الأرسطية، إذ أنّ «الحجاج في نظرهما يتجاوز فيما هو حقيقي مثبت، إلى تناول حقائق متعددة، فمبعثه هو الاختلاف وشرطه أن يقوم على موضوعية الحوار ويقف على المُحاج موقف الشريك المتعاون، من أجل تحقيق غايته، وهي استمالة العقول (المتلقي) لما يعرض عليه ويجعل العقول تدعن لما يطرح عليها، وأن يزيد في درجة إزاعانها باعتماد وسائل التأثير في خيالاته وعواطفه وإقناعه»¹² وبذلك يكون بيرلمان قد طوّر «نظريته البلاغية ضد العقلانية (الديكارتية)، وذلك بمحاولة إعطاء قابلية الصواب قيمة في مواجهة ما هو لازم، وبتوضيح أهمية الآراء بمقارنتها بالوقائع»¹³.

وعليه يمكننا القول أنهما ألفا هذا الكتاب من أجل إخراج الحجاج من دائرة الخطابة والجدل، يقول بيرلمان في هذا الصدد: «إننا لا نعتقد، عكس ما ذهب إليه أفلاطون و أرسطو وكيكيتينيان، وهم يحاولون أن يعثروا في البلاغة على استدلالات على شاكلة استدلالات المنطق، وأنّ البلاغة هي مجرد شيء زائد وأقل يقينية، لا تتوجه إلا إلى السذج والجهلة، وأنّ هناك مجالات هي مجالات الحجاج الديني والحجاج التربوي والأخلاقي والفني والفلسفي والقانوني، حيث الحجاج هو بالضرورة خطابي، من الاستدلالات الصائبة في المنطق الصوري لا يمكن تطبيقها في المجالات التي لا تتعلق بالأحكام الصورية الخالصة، ولا بالقضايا ذات المحتوى الذي يمكن الحسم فيه اللجوء إلى التجربة... إن الحياة اليومية والعائلية والسياسية توفر لنا كما هائلاً من أمثلة الحجاج البلاغي، إذ أن أهمية هذه الأمثلة المنتمية إلى الحياة اليومية تكمن في التقارب الذي تسمح به مع الأمثلة التي يوفرها الحجاج الأكثر سموا عند الفلاسفة والقانونيين»¹⁴.

وتكمن غاية الحجاج عند كلّ منهما إلى «جعل العقول تدعن بما يطرح عليها، أو يزيد في درجة ذلك الإزاعان، فأنجح الحجاج ما وفق في جعل حدة الإزاعان تقوى درجتها لدى السامعين بشكل يبعثهم عن المطلوب، (إنجازه أو الإمساك عنه)، أو هو ما وفق على الأقل في جعل سامعين مهينين لذلك العمل في اللحظة المناسبة»¹⁵، ومن هنا يتبين لنا بأنّ نظرية الحجاج التي جاء بها الباحثان تهدف إلى دراسة التقنيات الخطابية وتتعارض مع بلاغة الصور الفنية والمحسنات البديعية، وبالتالي يكون قد وضعاً لبنات الخطاب الحجاجي نظرية وتطبيقاً.

2. الحجاج في اللغة:

عرّف ابن فارس الحجاج في كتابه "مقاييس اللغة" من خلال الحديث عن أربعة معانٍ كبرى تنبثق من مادة "حجج" يقول: «الحاء والجيم أصول أربعة: فالأول القصد... ويمكن أن يكون الحجة مشتقة من هذا، لأنها تقصد، أو بها يقصد يكون عند الخصومة، والجمع حجج، والمصدر الحجاج»¹⁶

ويعرفه ابن سيده بقوله: «حاجته أحاجُّه حجاجاً محاجة من حجته بالحجج التي أدليت بها، والحجة والبرهان، وقيل الحجة ما دافع به الخصم، وقال الأزهري: الحجة، الوجه الذي يكون الظفر عند الخصومة، وجمع الحجة حجج، وحجاج، وحاجه محاجة وحجاجاً نازعه الحجة، وحجه يحجه حجا، غلبه على حجته، وفي الحديث: "فحجَّ آدم موسى"، أي غلبه بالحج، واحتجَّ بالشيء، اتخذته حجة، قال الأزهري: إنما سميت حجة لأنها تُحجَّ، أي تقصد، لأنَّ القصد لها وإليها»¹⁷، وعرفه الجرجاني فقال: «الحجة ما دلَّ به على صحة الدعوى، وقيل الحجة والدليل واحد»¹⁸.

ويعرفه الزمخشري في كتابه أساس البلاغة: «احتج على خصمه بحجة شهباء وبحجج شهب، وحاجَّ خصمه فحجه، وفلان خصمه محجوج وكانت بينهما محاجة»¹⁹. والمقصود بمحجوج أي السامع الذي اقتنع بما جاء به المحاجج، والمحاجج هو الشخص الذي استعمل الحجج لإقناع المحجوج.

و هذا ما نجده في لسان العرب لابن منظور الذي يعرف "الحجة" بقوله: «البرهان، وقيل: الحجة ما دافع به الخصم، وقال الأزهري، الحجة الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة، وهو رجل محجَّاجٌ، أي جدلٌ، والتحاجُّ: التخاصم، وجمع الحجة حجج وحجَّاجٌ، وحاجه محاجة وحجاجاً، نازعه الحجة، وحجَّه يحجَّه حجا: غلبه على حجته، وفي الحديث: فحجَّ آدم موسى، أي غلبه بالحجة»²⁰، فنجد ابن منظور في هذا المقام قد صرح بالعلاقة القائمة بين الحجاج والجدل، جاء ذلك في قوله: «وهو رجل محجاج أي جدل»²¹، وعليه عند تتبعنا لمعنى الحجاج في العديد من التعريفات اللغوية وجدنا أنه ارتبط ارتباطاً شديداً بالجدل والمجادلة التي يكون سببها الخلاف على رأي ما، فيهدف من خلالها المتحاججان إلى إثبات رأي ما، باستخدام حجج وبراهين، وهناك من أرجع معاني الجذر اللغوي لكلمة حجاج (ح، ج، ج) إلى المجادلة بسبب خلاف الوجه أو الرأي أو ما شابه، فمنها من أورد معنى الحجاج، غلبه بالحجة، أو حاجه محاجة، وحجاجاً جادله، واحتجَّ عليه، أقام عليه الحجة، وعارضه مستنكراً فعله، تجادلوا وتحاجَّوا: الحجة الدليل والبرهان²²، فالحجة من خلال هذا التعريف هي سلسلة من الحجج التي من خلالها يستطيع المتكلم أن يفحم المتلقي.

و خلاصة القول مما سبق أنَّ المعنى اللغوي للحجاج قد كشف لنا حقيقته المتمثلة في التأثير والإقناع، فهو أداة يسعى من خلالها المحاجج إقناع المحاجج قصد أخذ موافقته وقبوله، والحجاج غرضه الأسى هو التأثير في المتلقي من خلال ترتيب الحجج واختيارها بعناية، حتى تترك أثراً فيه.

3. الحجاج عند العرب

يعتبر الحجاج من أبرز القضايا التي شغلت أذهان الباحثين والطلاب العرب في الوقت الراهن، وكان لانفتاح الساحة العلمية العربية على الحجاج الغربي دور كبير في العودة إلى التراث العربي القديم والبحث فيه، فوجد الباحثون العديد من القضايا في التأليف والجهود العلمية التي كانت لها يد في التأصيل للنظرية الحجاجية، فكما هو معلوم أنَّ هذه النظرية هي وليدة بيئة غربية، ترجع جذورها الأولى إلى السفسطائيين والفلاسفة اليونانيين أمثال أفلاطون وأرسطو، وكان للعرب اطلاع عليها في وقت ازدهرت فيه الترجمة من اليونانية والاعريقية إلى اللغة العربية، وبالتالي استطاع العرب أن يسهموا نظرياً وتطبيقياً في هذا المجال

فتأسست العديد من العلوم، كعلم الكلام، والمنطق، «كما كثر التأليف في مجال الحجاج وتوظيفه في مختلف العلوم، فبرز مثلا السيوطي في كتابه عقود الجمان، كما برز الجاحظ في ميدان ثقافته الحوار، مؤسسا لنظرية البلاغة والحجاج والإقناع مراعيًا أحوال المخاطبين، وكان اهتمامه في الفعل اللغوي، كما برز ابن حزم الأندلسي في كتابه الفصل في الملل والأهواء والنحل، وتعلق مذهبه بعلم الكلام الذي عالج فيه مشكلات العقيدة بالمناظرات المختلفة، كما برز أيضا أبو هلال العسكري رابطا الحجاج بالشعر، واعتبره الفن الأساسي الذي تقام به الحجج، ويمكن القول أن الفكر العربي الإسلامي القديم انحصر في لونين خطابين، هما: الجدل والمناظرة فيما بين زعماء الملل والنحل، وفيما بين النحاة والمناطق، وفيما بين الفلاسفة والمتكلمين»²³، فقد اشتهر الحجاج عند العرب قديما في مجالات متعددة، تجلّى ذلك بصورة واضحة بعد الإسلام، وبعد الانفتاح على الثقافة الغربية كما ذكرنا آنفا، وفيما يأتي سنتعرض إلى الجاحظ الذي يمثل المدرسة القديمة، وطه عبد الرحمن الذي يمثل المدرسة الحديثة، وذلك لما لهما من إسهامات جديّة في مجال النظرية الحجاجية.

3.1 الحجاج عند الجاحظ:

يعتبر الجاحظ من أبرز العلماء الذين اطلعوا على أعمال أرسطو وتأثروا بها، خاصة في مجال الشعر والخطابة، تجلّى ذلك بصورة واضحة في العديد من أعماله، إذ يرى عباس آرحيلة أنّها «أول محطة تصادف الباحثين في مسألة التأثير بالثقافة اليونانية»²⁴، ولعلّ البيئة التي عاش فيها الجاحظ ساعدته وبشكل كبير في الاطلاع على العديد من العلوم، لاسيما علوم الدين والأدب واللغة والفلسفة، فقد عرف عن البصرة أنّها مدينة تمتعت بتنوعها الحضاري والمعرفي، مما جعله يحيط بشتى العلوم، فاهتم بالنزعة الحجاجية بدرجة كبيرة، خاصة أنّها واءمت مذهبه، فكما هو معروف عنه أنه ينتهي إلى المذهب المعتزلي، فوجد في الحجاج ضالته من أجل الدفاع عن مذهبه.

وعليه يمكننا القول أنّ التكوين الذي حظي به الجاحظ كان الدافع الأكبر الذي ساهم في تحديد روافد العقل الحجاجي عنده، خاصة عامل البيئة والدين والفكر.

اتضح اتجاه الجاحظ الحجاجي في كتابه "البيان والتبيين" بصورة خاصة، حيث عدّه النقاد كأول مدونة تزرخ بإشارات بلاغية دقيقة، فهو «كتاب بلاغي بامتياز، لكنه تتعاقب فيه البلاغة بالحجاج تأصيلا وتنظيرا، فالقارئ لهذا الكتاب يجد نفسه أمام نظرية تستجمع أقطابا ثلاثة، هي: الخطاب والبلاغة والحجاج، والخيط الناظم لها هو التواصل القائم على الفهم والإفهام، والإبلاغ والتلقي، مع الإقناع»²⁵، والمتصفح لهذا الكتاب يجد أنّ الجاحظ أدرج فيه فصولا كثيرة تتعلق بالحجاج، نذكر على سبيل المثال حديثه عن البلاغة حين قال: «أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة، وذلك أن يكون الخطيب رأس الجحش، ساكن الجوارح قليل اللحظ، متخير اللفظ لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوق، ويكون في قواه فضل التصرف في كل طبقة ولا يدقق المعاني كل التدقيق»²⁶، فغاية الجاحظ من خلال هذا النص هي الخطاب الإقناعي الشفهي، وهو هنا يقدّم الغاية (المشاهدة) عن الوسيلة (اللغة).

ومن جهة أخرى، إذا ما نظرنا إلى عنوان الكتاب نجد أنه استعمل مصطلحين مهمين اتضح من خلالهما ميول الجاحظ وأسلوبه في كتابة هذا الكتاب، فالبيان والتبيين بمعنى الفهم والإفهام، وعليه فإنّ مفهوم البيان

تتنازعه وظيفتان، أولاهما: إقناعية، والثانية: إقناعية (حجاجية)، وهو ما أكده محمد العمري في كتابه البلاغة العربية حين قال: «مفهوم البيان: المعرفة والإقناع».

يتنازع البيان عند الجاحظ في كتابه البيان والتبيين، مفهومان أو وظيفتان:

- البيان معرفة: الوظيفة الفهمية.

- البيان إقناع: أو الوظيفة الإقناعية

الوظيفة الثانية هي الوظيفة الصريحة والوظيفة الأولى هي الوظيفة الكامنة المتحركة في مقدمة الكتاب²⁷، ومع تداخل المفهومين، فإن المفهوم الأول (العام) يدخل في الرؤية العامة للعصر تأملاً في النص والكون، وأن المفهوم الثاني (الخاص) يدخل في إطار الهموم الشخصية والمذهبية للجاحظ باعتباره علماً من أعلام المعتزلة، حاول ضمن جهود شيوخهم في البيان والتبيين وغير المذكورين تقنين الخطاب الإقناعي، أي العمل على المستوى البلاغي: تفاوت الخطاب وشجاعته²⁸.

كما وظف الجاحظ العديد من الآليات الحجاجية في كتابه البيان والتبيين، ولعل أبرزها ما وظفه من نصوص قرآنية وأحاديث نبوية، ومن الشعر والأمثال والأقوال المأثورة، وبذلك اعتبرت نصوصه من أبرز النصوص الحجاجية، واعتمد أيضاً على خاصية ذكر الشيء وضده، والتي تعتبر من أنجع الطرائق الحجاجية التي اعتمدها في كتابه، وهذه الطريقة التي انتهجها تقوم على تناول الموضوع الواحد بطريقتين متقابلتين دعماً ودحضاً، تشريعاً وتنفيذاً، إبطال حق وإحقاق باطل، ومن فوائد هذه الطريقة تدريب الأذهان على التفكير العلمي القويم، وإكسابهم مهارة الاحتجاج في الموضوعات التي تبدو تافهة حقيرة²⁹.

2.2 الحجاج عند طه عبد الرحمن:

طه عبد الرحمن من أبرز المفكرين الذين اهتموا بموضوع الحجاج، فهو يرى أنه الآلية الأبرز للإقناع، يعرفه بقوله: «كل منطوق به موجه إلى الغير لإقامة دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها»³⁰، هو يقر هنا أنه لا خطاب بغير حجاج، وبالتالي علاقة الخطاب بالحجاج علاقة متلازمة لا بد منها.

يورد طه عبد الرحمن العديد من التعاريف الأخرى للحجاج، فمرة يتحدث عنه بأنه الآلية الأبرز للإقناع، وأخرى بوصفه فعالية تداولية جدلية، وثالثة على أنه فعالية استدلالية خطابية؛ إذ يقر بأن الكلام والخطاب والحجاج مسميات لمسمى واحد، هو الحقيقة النطقية للكلام، وقد لاحظ «أن الحجاج يدل على العلاقة المجازية، قد ورث عنها تكاثراً في ذوات المستعير، فهو المدعي الجلي والمدعي الخفي، وهو كذلك المعترض الجلي والمعارض الخفي، سواء تعلق الأمر بالمعنى الحقيقي أو تعلق بالمعنى القيمي»³¹.

فحقيقة الكلام عنده تكمن في أنها «ليست هي الدخول في علاقة بألفاظ معينة بقدر ما هي الدخول في علاقة مع الغير، بمعنى أن الذي يحدد ماهية الكلام، إنما هو "العلاقة التخاطبية"، وليس العلاقة اللفظية وحدها، فلا كلام بغير تخاطب، ولا متكلم من غير أن تكون له وظيفة المخاطب (بكسر الطاء)، ولا مستمع من غير أن يكون له وظيفة المخاطب (بفتح الطاء)»³².

انطلاقاً من هذا التعريف يمكننا الإقرار بأن طه عبد الرحمن ربط الحجاج باللغة الطبيعية للإنسان أي عملية التواصل التي يعتبرها أصل الكلام، كما أنه ربط بين المنطق واللغة.

وهو بذلك يكون قد أصّل للحجاج العربي، فنقله من مرحلة الجمود إلى مرحلة التجديد، فأقام مشروعاً هائلاً في نظرية الحجاج لا يسعنا الحديث عنه في هذه الورقة البحثية لتشعبه.

4. آليات الحجاج في كتاب شروط النهضة لمالك بن نبي

الخطاب الحجاجي من أكثر الخطابات الحاضرة بقوة في أعمال مالك بن نبي، خاصة في كتاب "شروط النهضة" الذي سيمثل مدونة التطبيق لهذه الورقة البحثية، إذ ما يهمننا في هذا الجانب هو استخلاص الآليات الحجاجية التي اعتمدها صاحب هذا الكتاب، حيث سنركز على الروابط الحجاجية والآليات البلاغية، وكذا الشواهد والأمثلة، ولكن قبل ذلك علينا أن نتعرف على مالك بن نبي أولاً.

4.1 نبذة عن مالك بن نبي:

هو مفكر جزائري، أحدث كتاباته نقلة نوعية في جوانب عديدة، بحيث استطاع أن يؤسس مفاهيم ومصطلحات فكرية وفلسفية غير معهودة، ولد بمدينة قسنطينة سنة 1905، درس في الكتاب بمدينة تبسة لمدة أربع سنوات، أنهى تعليمه الثانوي سنة 1925، ثم ذهب إلى فرنسا لمتابعة دراساته العليا، وحصل على شهادة مهندس كهرباء سنة 1935.

تعرف في عام 1928 على رائد الحركة الإصلاحية بالجزائر العلامة عبد الحميد بن باديس، رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وفي باريس تعرف على مشكلات أمته ووطنه، وفيها عاش تجربة غنية تعرف من خلالها على روح الحضارة الغربية وأفكارها.

انخرط في نشاط فكري وسياسي بين المغتربين، وكان عنوان أول محاضرة يلقيها هناك "لماذا نحن مسلمون؟" وذلك في أواخر ديسمبر/كانون الأول 1931، وقد استجوبته الشرطة الفرنسية على إثرها.

شارك في تأسيس "جمعية الوحدة المغاربية" تحت إشراف الأمير شكيب أرسلان، وأصبح ممثلاً للجزائر فيها، وفي مارسيليا أشرف على نادي "المؤتمر الجزائري الإسلامي"، وبعد ذلك سافر إلى مصر عام 1956 وأقام بالقاهرة؛ حيث سخر نفسه وقلمه لخدمة ثورة التحرير الجزائرية، وهناك عمق معرفته باللغة العربية بعد أن كان ضليعاً في اللغة الفرنسية.

ركز جهده في مجالي فكر النهضة والدراسات القرآنية، وقدم في الأول إسهامات بارزة لتجديد الفكر الإسلامي المعاصر، حيث أكد أن أزمة المجتمع المسلم هي أزمة منهجية عملية بالأساس، وبناء على ذلك صاغ نظريته في التغيير الاجتماعي على أساس مبدأ الفاعلية والتصدي لما سماه القابلية للاستعمار والحذر من داء الاستكانة والهوان.

أغنى الفكر الإسلامي بمصطلحات عديدة بحديثه عن "الأفكار الميتة" و"الأفكار المميّنة" والعلاقة بينهما وعن مراحل تطور الحضارة الإسلامية وغير ذلك³³.

2.3 مؤلفاته³⁴:

تحلى مالك بن نبي بثقافة منهجية، استطاع بواسطتها أن يضع يده على أهم قضايا العالم المتخلف، ودرسها تحت عنوان (مشكلات الحضارة)، فكانت هذه السلسلة التي تحمل العناوين الكبرى الآتية: بين الرشاد والتهيه، تأملات، دور المسلم ورسالته، شروط النهضة، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، الظاهرة القرآنية، فكرة الإفريقية الآسيوية، فكرة كمنولث إسلامي، في مهبط المعركة، القضايا الكبرى، مذكرات شاهد للقرن، المسلم في عالم الاقتصاد، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مشكلة الثقافة، من أجل التغيير، ميلاد مجتمع، مجالس دمشق، لبيك حج الفقراء، وجهة العالم الإسلامي ج1، وجهة العالم الإسلامي ج2.

3.5 آليات الحجاج في كتاب شروط النهضة:

تعددت آليات الحجاج في كتاب شروط النهضة، الذي جاء عبارة عن مجموعة من المقالات، حاول من خلالها تلخيص أهم الشروط التي يستطيع بها المجتمع أن يحقق نهضة قوية، مقدما من خلاله أسسا ومفاهيم تساعد على إعادة بناء المجتمعات الهزيلة التي سادها الركود والتخلف والتبعية، وبالتالي يكون بن نبي قد حدد للنهضة السليمة أصولا من عدة جوانب تلخصت في النواحي الثقافية والاجتماعية والسياسية والأخلاقية والجمالية، معتمدا في ذلك على أساليب حجاجية متعددة، محاولا من خلالها إقناع المتلقي بما طرحه في كتابه بطريقة فريدة من نوعها، وعليه ارتأينا أن نخصص هذه الورقة البحثية لاستخلاص أهم الآليات التي اعتمدها بن نبي في كتابه هذا، ومن جملة هذه الآليات نجد:

1.3.5 الآليات الحجاجية التداولية:

أ. الروابط الحجاجية:

تعد الروابط الحجاجية من أهم الأسس التي تنبني عليها اللغات، خاصة اللغة العربية؛ إذ لا يستقيم معنى الكلام أو الخطاب إلا بوجود روابط تربط بين الملفوظات، فالروابط الحجاجية هي كل «وحدة لغوية تربط بين ملفوظين أو أكثر في إطار استراتيجية حجاجية واحدة»³⁵، فلا يتحقق الحجاج إلا باستعمالها، بحيث تربط بين قضيتين لغوياً ودلالياً، تنقسم هذه الروابط حسب وظيفتها التي تؤديها داخل سياق معين، يمكن تلخيص هذه الوظائف فيما يلي:

- الروابط المدرجة للحجج: (حتى، بل، لكن، مع ذلك، لأن)
- الروابط المدرجة للنتائج: (إذن، لهذا، وبالتالي)
- الروابط التي تدرج حججا قوية: (حتى، بل، لكن، لا سيما)
- روابط التعارض الحجاجي: (بل، لكن، مع ذلك)
- روابط التسوق الحجاجي: (حتى، لا سيما)³⁶

ويمكن دور هذه الروابط الحجاجية «واستثمار دلالاتها في ترتيب الحجج ونسجها في خطاب واحد متكامل، إذ تفصل مواضع الحجج، بل وتقوي كلّ حجة منها الحجّة الأخرى، انطلاقاً من أنه عندما يكون تحت تصرفنا عدداً من المعطيات ؛ فإننا نمتلك إمكانات هائلة لنتمكن من الربط بينها، ويعدّ من بين هذه الروابط الخطابية مهم بقدر أهميته في التصنيفات»³⁷.

الروابط الحجاجية كثيرة في كتاب شروط النهضة، سنحاول استخلاص بعضها فيما يلي:

1. الرابط الحجاجي الواو:

يعد هذا الرابط من أهم وأبرز الروابط الحجاجية، إذ لا تقتصر وظيفته على الجمع فقط، بل تعمل على تقوية الحجج المترابطة ببعضها، فهي تعمل على ترابط الحجج التي تخدم نتيجة واحدة، والأمثلة على ذلك في كتاب شروط النهضة كثيرة، نذكر منها ما يلي:

يقول مالك بن نبي: «مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلة ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها، وما الحضارات المعاصرة والحضارات الضاربة في ظلام الماضي والحضارات المستقبلية إلا عناصر للملحمة الإنسانية منذ فجر القرون إلى نهاية الزمن ... وما أجلّ هذه الساعة حينما تؤذن بفجر جديد من المدينة، وما أهولها من ساعة حينما يعلن غروب أخرى»³⁸.

فالرابط الحجاجي الواو في هذه الجمل جمع بين عدد من الحجج المتساندة أو المتساوقة إن صح التعبير؛ بحيث قام بترتيبها لتحقيق النتائج المرغوبة ودعمها؛ فقد جاءت متسقة غير منفصلة، إذ حاول مالك بن نبي من خلال هذه الحجج استمالة المتلقي لمتابعته حتى يصل إلى النتيجة المطلوبة، معتمداً في ذلك على ربطه وجمع القضايا والآراء في نصه، فجعلها مرتبة ومتتابعة من أجل الوصول إلى النتائج المرجوة، وعليه يمكننا القول بأن كل حجة جاءت لتقوي الحجّة التي سبقتها بفعل هذا الرابط، ويمكن التمثيل عليها حججاً كما يلي:

حجة 1: ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلة ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية.

حجة 2: وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها.

حجة 3: وما الحضارات المعاصرة والحضارات الضاربة في ظلام الماضي والحضارات المستقبلية إلا عناصر للملحمة الإنسانية منذ فجر القرون إلى نهاية الزمن.

حجة 4: وما أجلّ هذه الساعة حينما تؤذن بفجر جديد من المدينة.

حجة 5: وما أهولها من ساعة حينما يعلن غروب أخرى.

فقد قام الرابط الحجاجي "الواو" هاهنا في هذه الفقرة بوصل الحجج وترتيبها بغرض الوصول إلى النتيجة المثلثة في "سبل تطور الأمم وازدهارها"، ومن أجل تقويتها.

2. الرابط الحجاجي لكن:

هي حرف يفيد الاستدراك «ومعنى الاستدراك أن تنسب حكماً لاسمها يخالف المحكوم عليه قبلها، كأنك لما أخبرت عن الأول بخبر، خفت أن يتوهم من الثاني مثل ذلك، فتداركت بخبره إن سلباً وإن إيجاباً، ولذلك لا تكون إلا بعد كلام ملفوظ به أو مقدر... ولا تقع (لكن) إلا بين متنافيين ومتغايرين بوجه ما... والتغاير في المعنى بمنزلة في اللفظ»³⁹، فهي تسعى إلى إثبات ما بعدها بعدما قامت بنفي ما قبلها، وتكون قد توسطت الدليلين بوصفها رابطاً حجاجياً، فجعلت الدليل الذي وراءها أقوى من الذي قبلها في الحاجة، فهي تأتي بين قولين أحدهما منفي والآخر مثبت، يقول ديبورا شيفرن **DEBORAH Schiffren** «على الرغم من أن "لكن" هي من أدوات تنسيق الخطاب، إلا أن لها وظيفة تداولية مختلفة، وهي أنها تجعل للوحدة التي تليها فعلاً مضاداً، ولأن هذا الدور مؤسس على معناها المضاد، فإن مدى استعمالها الذهني أضعف من مدى الواو، إذ لا تنسق لكن بين الوحدات الوظيفية إلا إذا كان هناك بعضاً من العلاقات المتضادة في محتواها الذهني أو التفاعلي»⁴⁰ ويمكننا أن نمثل لذلك من المدونة التي بين أيدينا:

- «كأنها شجار حدث في وسط ليل لم ينتبه إليه نائم ولكن شعاع الفجر قد بدأ ينساب بين النجوم بالليل»⁴¹

فقوله "كأنها شجار حدث في وسط ليل لم ينتبه إليه نائم" مثلت حجة، وقوله "ولكن شعاع الفجر قد بدأ ينساب بين نجوم الليل" مثلت حجة ثانية تعارضت مع الأولى، وكانت (لكن) هي نقطة الفصل بينهما نحس من خلالها أنه يصور لنا لحظة الفرج.

- «لأن الحكمة قد تركت مكانها للانتهازية السياسية ولكن مهما كان شأن جمعية العلماء إزاء ذلك الانحراف (...)، فإنها لا تزال في طليعة النهضة الجزائرية الصحيحة»⁴²

في هذا المثال توسطت (لكن) الحجتين، فجعلت من الثانية الأقوى وأضعفت الحجة الأولى، فبرغم الانتهازية السياسية التي كان يعاني منها الشعب الجزائري إلا أن النهضة في الجزائر كانت صحيحة، وبالتالي جعلت (لكن) من لاحقها الغلبة المطلقة.

3. الرابط الحجاجي الفاء:

تعدّ الفاء أيضاً من أهم الروابط الحجاجية، فهي تفيد الترتيب والتعقيب، فمثلاً عندما تقول: "جاء زيد فعمر"، معناه أن زيد سبق عمر في المجيء، كما لها وظيفة مشابهة لوظيفة الواو، لأنها تقوم بترتيب الحجج، وربط النتائج.

وبالعودة إلى الكتاب الذي بين أيدينا، نجده يوظفها في مواطن متعددة، لا يسعنا الحديث عنها في هذا المقام، لكن سنقتصر على بعضها، ومن ذلك:

- «ونقطة الانطلاقة هي أن الخمسين عاماً الماضية تفسر لنا الحالة الراهنة التي يوجد فيها العالم الإسلامي اليوم... فهي من ناحية: النتيجة الموافقة للجهود المبذولة...»⁴³

يريد مالك بن نبي من ذلك أن يبين لنا الحالة التي وصل إليها العالم الإسلامي، بعد خمسين سنة، وبعد جهود أكثر من نصف قرن من أجل النهضة، وبالتالي تكون الفاء قد ربطت بين السبب "نقطة الانطلاقة النهضة" والنتيجة "الجهود المبذولة من أجل تحقيق النهضة".

• ويقول أيضا: «إذ لا يمكن أن يوجد حد دقيق بين حضارة تتكون وبين حضارة تكونت فعلا... ففي الحجرة التي أكتب فيها الآن كل شيء غربي، ما عدا (القلة) التي أراها أمامي، ومن العيب إذا أن نضع ستارا حديديا بين الحضارة التي يريد تحقيقها العالم الإسلامي وبين الحضارة الحديثة»⁴⁴

تحدث مالك بن نبي في هذا المقام عن الفرق الجوهرية بين الحضارة الغربية، وبين الحضارة الإسلامية التي لا تزال تحاول القيام، وعليه جاء الرابط الحجاجي الفاء هنا للربط بين الأسباب والنتائج، وكذا الترتيب والتعقيب.

4- الرابط الحجاجي لأن:

يعدّ الرابط الحجاجي "لأن" من أهم الروابط الحجاجية التي تفيد التعليل والتفسير، وهو إلى جانب هذا من الروابط المدرجة للحجج، فيستعمل لتبرير الفعل، كما يستعمل لتبرير عدمه⁴⁵، ومن الأمثلة التي جاءت في كتاب بن نبي قوله: «من المعروف أنّ القرآن الكريم قد أطلق اسم الجاهلية على الفترة التي كانت قبل الإسلام، ولم يشفع لهم شعر رائع وأدب فذ، من أن يصفهم القرآن بهذا الوصف، لأنّ التراث الثقافي العربي لم يكن يحوي سوى الديباجة المشرقة»⁴⁶.

جاء الرابط الحجاجي في هذا المثال لتبرير الفعل وتعليله، وهو بالتالي يربط بين النتيجة والحجة، فقد أتى الرابط "لأن" بعد ذكر النتيجة، "القرآن الكريم أطلق اسم الجاهلية على الفترة التي كانت قبل الإسلام"، وجاءت الحجة بعده لتعلل النتيجة "التراث الثقافي العربي لم يكن يحوي سوى الديباجة المشرقة".

السلالم الحجاجية:

1. مفهوم السلم الحجاجي: ويقصد به طبيعة العلاقات القائمة بين الحجج في ترتيبها، فالسلم الحجاجي هو «فئة حجاجية موجهة»⁴⁷، ويعني هذا الأخير: «أنه إذا كان يمكن من إنشاء فعل حجاجي، فإنّ القيمة الحجاجية لهذا القول يتم تحديدها بواسطة الاتجاه الحجاجي، وهذا الأخير قد يكون صريحا أو مضمرا»⁴⁸، ويعرفه ديكره بأنه "نظام للحجج القائمة على معيار التفاوت في درجات القوة وعلى سلمية ممكنة بين الحجة الأكثر قوة وبين الحجة الأكثر ضعفا»⁴⁹، من خلال هذه التعاريف يمكننا القول بأنّ السلم الحجاجي ينبنى على مجموعة من الحجج تكون إحداها أكثر قوة من الأخرى، فهو عبارة عن مجموعة غير فارغة من الأقوال مزودة بعلاقة ترتيبية وموفية بالشرطين التاليين:

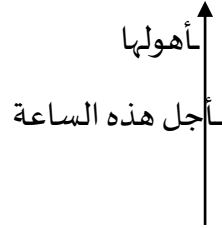
1 - كلّ قول يقع في مرتبة ما من السلم يلزم عنه ما يقع تحته، بحيث تلزم عن القول الموجود في الطرف الأعلى جميع الأقوال التي دونه.

2 - كلّ قول كان في السلم على مدلول معين، كان ما يعلوه مرتبة دليلا أقوى منه⁵⁰.

وقد وظف مالك بن نبي مجموعة من السلالم الحجاجية في كتابه "شروط النهضة"، نذكر منها ما يلي:

الطرح 1: «وما أجلّ هذه الساعة حينما يؤذن بفجر جديد من المدينة، وما أهولها من ساعة حينما تعلن

غروب أخرى»⁵¹

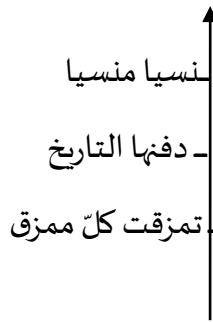


فكان هول الساعة حينما تعلن غروب أخرى أكثر حجية من أجلّ الساعة التي يؤذن بفجر جديد من

المدينة، فجاءت في أعلى مراتب السلم الحجاجي.

الطرح الثاني: «لقد أصبحت أحاديث وتمزقت كلّ ممزق، ودفنها التاريخ في طياته، حيث استقرت في

ضميره نسيا منسيا»⁵².

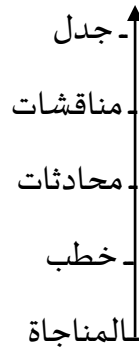


في هذا الطرح يتضح لنا أنّ الأحاديث التي أصبحت نسيا منسيا كانت أكثر حجية من التي دفنها التاريخ

والتي تمزقت كلّ ممزق، وبالتالي يمكننا الإقرار بأن جملة "نسيا منسيا" جاءت في أعلى مراتب السلم الحجاجي،

ذلك لقوتها في توضيح المعنى.

الطرح 3: «فتحولت المناجاة إلى خطب ومحادثات ومناقشات وجدل»⁵³



فإذا قارنّا بين الحجج المتواجدة في السلم الحجاجي الأخير ، نجد أنّ هناك تدرجا وترتوبا في الحجج، اتخذت منها تصاعديا، فكانت البداية من الحجة الأضعف وهي "المناجاة" إلى الحجة الأكثر قوة وهي "الجدل"، وهذه دلالة إلى أنّ الشعب الجزائري أصبح أكثر قوة وصلابة لمواجهة العدو.

2.3.5 الآليات البلاغية:

تعتبر الصور البلاغية من أهم الصيغ اللغوية التي تحمل طابعا حجاجيا ، «فكثيرا ما ننظر إليها نظرة أدبية حصرتها في وظيفة التحسين والتزييق، ولكن على الرغم من ذلك فإن بعضها يستخدم في الخطاب لأجل حاجات الحجاج، لأنها ذات قيمة حجاجية»⁵⁴.

وعليه يمكننا الإقرار بأن وظيفة البلاغة هي وظيفة حجاجية أكثر من أن تكون وظيفتها تحسين الكلام؛ إذ تكمن قيمتها في أن لها «وظيفة إقناعيه استدلالية، ومن هنا يتبين أن معظم الأساليب البلاغية تتوفر على خاصية التحول وإنجاز مقاصد حجاجية وإفادة أبعاد تداولية»⁵⁵.

انطلاقا من هذا التمهيد سنحاول التطرق إلى بعض الآليات البلاغية التي وظفها الكاتب في شروط النهضة من تشبيه واستعارة.

أ- التشبيه (التمثيل):

يعدّ التشبيه من أبرز الأساليب البلاغية، وبالتالي يكون من أبرز أساليب الحجاج والإقناع، يعرفه الجرجاني بقوله: «مما اتفق العقلاء عليه أنّ التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت من صوره الأصلية إلى صورته كساها أبهة (...)، فإذا كان مدحا كان أبهى وأفخم، وإذا كان حجاجا كان برهانه أنور وسلطانه أقهر، وبيانه أهر»⁵⁶.

وكتاب شروط النهضة أفرد العديد من التمثيلات والتشبيهات التي زادت من قوة التعبير، ومن وقع الحجة على المتلقي، ولعلّ ذلك اتضح جليا في قول مالك بن نبي: «فعندما برق في أفقنا فرس الأمير "عبد القادر" في وثبته الرائعة، كان الليل قد انتصف منذ وقت طويل، ثم اختفى سريعا شبح البطل الأسطوري كأنه حلم طواه النوم»⁵⁷، ويقول أيضا: «وهكذا كانت كلمة جمال الدين، فقد شقت كالمحراث في الجموع النائمة طريقها فأحيت موتاه»⁵⁸. وقوله: «وهكذا استطاع النوم أن يشدّ الأجفان من جديد، بعد أن حاولت تفلتا من قيوده، ومضت هذه الأصوات التي كادت أن تلفت إليها الأذهان وتجمع حولها الناس، وكأنها شجار حدث وسط ليل لم ينتبه إليه نائم»⁵⁹.

الملاحظ في هذه النصوص الثلاثة التي وظف فيها مالك بن نبي التشبيه، كأنها عبارة عن رسائل مشفرة، يريد من خلالها أن يوصل فكرة أنّ الانتصار والتغيير لا يأتي في الأحلام، وفي النوم، في النصّ الأول تحدث عن ظهور فرس الأمير، وسرعان ما اختفى كأنه حلم ، مستعملا أداة التشبيه كأنّ، وتوظيف الأمير عبد القادر لم يكن توظيفا عشوائيا، بل كان مقصودا، ذلك لأنّ هذه الشخصية من أبرز الشخصيات التي أحدثت تغيرات كبرى في المجتمع الجزائري خاصة والعربي عامة، وهي شخصية صنعت أمجاد المقاومة الوطنية ضد الاستعمار الفرنسي، كما أنّ الأمير استطاع أن يجمع بين قوة السيف وقوة القلم، فتوظيفه في نصوص مالك بن نبي ما هو

إلا إشارة إلى ضرورة الاقتداء به، فمن أجل إحداث التغيير داخل المجتمع لابد من أن تكون هناك ثورة على النقاط السلبية الكامنة في المجتمعات من خلال التعلم من تجارب الشخصيات البطولية أمثال الأمير عبد القادر، وفي النص الثاني تحدث عن الدور الكبير الذي لعبه جمال الدين الأفغاني الذي أحدثت ثورته نقلة نوعية في النهضة بالبلاد العربية، حيث نجد في النص إشارة إلى أن جمال الدين جاء ليوقظ الأمة العربية من سباتها، فكانت كلمته كالمحراث أحدثت ضجة، وعليه زاد التشبيه في هذه النصوص من المعنى وضوحا والتعبير جمالا، لأنه يوضح ما التبس فهمه.

ب- الاستعارة:

لا تقل الاستعارة قيمة عن التشبيه، خاصة وأنها تعدّ هي الأخرى من أبرز وسائل الحجاج نجاعة، يستعملها المخاطب من أجل الوصول إلى أهدافه الحجاجية، يعرفها الجرجاني بقوله: « فقد حصل من هذا الباب أن الاسم المستعار كلما كان قدمه أثبت في مكانه، كان موضعه من الكلام أضمن به، وأشدّ محاماة عليه، وأمنع لك من أن تتركه وترجع إلى الظاهر بالتشبيه، فأمر التخيل فيه أقوى ودعوى المتكلم له أظهر وألم»⁶⁰.

ومن الاستعارات الحجاجية التي وظفها مالك بن نبي، مايلي:

- «لقد حانت الساعة التي ينساب فيها شعاع الفجر الشاحب بين نجوم الشرق»⁶¹.

فقوله "شعاع الفجر الشاحب" استعارة، حيث ذكر المشبه "الفجر" وحذف المشبه به "الإنسان" ودلت عليه القرينة "الشاحب"، وعليه فهي استعارة مكنية، فشحوبة الوجه لا يختص بها إلا الإنسان، واستعارها مالك بن نبي ليزيد المعنى قوة ودقة في التصوير.

- وفي مثال آخر يقول: «حيث المدينة التي نامت منذ أمس مازالت مخدرة»⁶²، النوم أيضا خاصية من خاصة الكائنات الحية، والمثال هنا يمكننا اعتباره استعارة مكنية لأن المؤلف شبه المدينة بالإنسان، فذكر المشبه "المدينة" وحذف المشبه به "الكائن الحي" ودلت عليه القرينة "نامت" فالنوم لا يختص به إلا الكائنات الحية.

- «ستحمل إشعاعات الصباح الجديد ظل جهدك المبارك»⁶³.

- «سيحمل النسيم الذي يمرّ الآن البذور التي تنثرها يدالك»⁶⁴.

- «ولكنّ شمس المثالية لا تزال تواصل سيرها»⁶⁵.

هذه الاستعارات وغيرها، وظفت بغرض الزيادة من دقة التعبير، ووقعها على المتلقي، فإذا ما تأملنا فيها لوجدنا أنها تحمل معان كثيرة يغزوها التفاؤل بغد مشرق، وبمستقبل متحضر للشعوب العربية، التي ما عليها إلا أن تنفض الغبار وتترك الكسل، وتناضل من أجل إحداث التغيير، والنهضة بالمجتمع العربي إلى بر الأمان.

5. تحليل النتائج

يعدّ الحجاج من أبرز النظريات القديمة الحديثة، قديمة النشأة، حديثة التطور والمدارس، ونظرا لتشعب الموضوع ووفرة المصادر والمراجع، حاولنا ملامسة الموضوع بصورة سطحية، من خلال الخطوط العريضة لهذه النظرية، وذلك لما يقتضيه الموضوع المختار، وهو البحث في الآليات الحجاجية في كتاب شروط النهضة لمالك بن نبي، ولا يسعني هنا إلا الإشارة إلى أنّ هذا الموضوع يحتاج إلى دراسة أعمق نظرا لأهميته، وأهمية النموذج.

6. خاتمة

انطلاقا من دراستنا النظرية والتطبيقية في هذه الورقة البحثية، ومن خلال ما سبق توصلنا إلى النتائج التالية:

- الحجاج له جذور ضاربة في الزمن، إذ ظهر منذ الحضارة اليونانية مع السوفسطائيين وأفلاطون وأرسطو.
 - للحجاج مسميات عديدة كالإقناع والخطابة والجدل والبرهان، كلها مفاهيم تصبّ في قالب واحد، غايتها التأثير في المتلقي.
 - الحجاج مرتبط أشدّ الارتباط باللغة، فلا حجاج خارج لغة، ولا لغة بدون حجاج، وهدف الحجاج هو الوصول إلى تحقيق الإقناع.
 - كان للعرب قديما رأيهم الخاص في الحجاج، ولعلّ أهم عامل دفعهم إلى ذلك، هو التطور الحضاري الذي شهدته البلاد العربية آنذاك من خلال الترجمة، فبرزت العديد من المحاولات من طرف نقاد ذلك العصر، بحيث اهتموا بالنظرية الحجاجية أمثال: الجاحظ وعبد القاهر الجرجاني وغيرهما.
 - يزخر كتاب شروط النهضة لمالك بن نبي بالعديد من الآليات الحجاجية، بصفته كتاب موجه للمتلقي يهدف إلى تحقيق شرط أساسي للتحضر، والنهضة بالمجتمعات العربية لمواكبة الحضارات المتقدمة.
 - رأينا من خلال فحص هذا الكتاب حقيقة مفادها أنّ مالك بن نبي حاول زرع أفكار تطويرية تدعو لتحرير الفكر العربي باعتماده على أسلوب حجاجي خالص، واستعمال العديد من الآليات الحجاجية.
 - الآليات التي اعتمد عليها مالك بن نبي بكثرة هي الآليات البلاغية والآليات التداولية، والاعتماد على الشواهد خاصة القرآنية.
 - وظف مالك بن نبي مجموعة من الروابط الحجاجية التي تنقسم بدورها إلى روابط مدرجة للحجج، وأخرى مدرجة للنتائج حسب طبيعة غرضها الحجاجي.
 - استعمال السلال الحجاجية بكثرة، وهو ما تقتضيه طبيعة المقالات الموظفة في كتاب شروط النهضة.
- وفي الختام لا يسعنا القول إلا أن نشير إلى أننا حاولنا جاهدين ملامسة هذا الموضوع والاقتراب من جوهره، والإقرار بأنّ هذا الموضوع يحتاج إلى دراسة أكبر خاصة وأنّ النموذج المختار يعتبر من أبرز المدونات المليئة بالآليات الحجاجية نظرا لطبيعته وطبيعة ما يدعو إليه .

7. قائمة المراجع:

• المؤلفات:

- ✓ Breton philippe, l'argumentation dans la communication, edition du casbah, alger, janvier 1998. :Voir
- ✓ Oswald.ducrot.jean claud Anxmlre ;l'argumentation dans la langue piermardaga ; editeur2 ; galerie des princes 1000 bruxelles.
- ✓ Breton philippe, l'argumentation dans la communication, edition du casbah, alger, janvier 1998:Voir
- ✓ أبو الحسن أحمد بن فارس زكريا، "مقاييس اللغة"، تح: محمد هارون، ط1، مج2، دار الجيل، بيروت، 1411هـ.
- ✓ إبراهيم مصطفى، أحمد حسن الزيات، حامد عبد القادر، محمد علي النجار، المعجم الوسيط، ج1، ط2، المكتبة الإسلامية، (د.ت).
- ✓ ابن سيدة، المحكم والمحيط الأعظم، تح: عبد الحميد هنداي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان.
- ✓ أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ط1، العمدة في الطبع، الدار البيضاء-المغرب، 2006.
- ✓ أرسطو طاليس، الخطابة، ط1، تر: إبراهيم سلامة، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، 1950.
- ✓ ألكسندر ماكوفلسكي، تاريخ علم المنطق، ط1، تر: نديم علاء الدين وإبراهيم فتحي، دار الفرابي، بيروت، 1987.
- ✓ جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ط)، مصر، 2000.
- ✓ جار الله الزمخشري، أساس البلاغة، ط1، دار صادر، بيروت، 1412-1992، مادة حجج.
- ✓ خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مع محاولة لتأصيلها في الدرس العربي القديم، ط1، بيت الحكمة، الجزائر، 2009.
- ✓ صابر حباشة، التداولية والحجاج مداخل ونصوص، صفحات للدراسات والنشر، دمشق-سوريا، 2008.
- ✓ طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ط1، المركز الثقافي العربي، 1998.
- ✓ عباس أرحيلة، الأثر الأرسطي في النقد والبلاغة العربيين في حدود القرن الثامن الهجري، ط1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1999.
- ✓ عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ط2، تح: محمد الفاضلي، المكتبة العصرية، بيروت-لبنان، 1999.
- ✓ عبد الله المهلول، الحجاج الجدلي: خصائصه الفنية وتشكلاته الأجناسية، في نماذج من التراث اليوناني والعربي، ط1، قرطاج للنشر والتوزيع، صفاقس-تونس، 2013.
- ✓ عبد الهادي الشهري، استراتيجية الخطاب مقارنة لغوية تداولية، (د.ط)، دار الكتاب الجديد، (د.ت).
- ✓ علي بن محمد بن علي الجرجاني، التعريفات، تح: إبراهيم الأنباري، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، ط1، 1405هـ.
- ✓ فيليب بروتون، جيل جوتييه، تاريخ نظريات الحجاج، ط1، تر: محمد صالح ناحي الغامدي، مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبد العزيز، 2011.

✓ قعموسي عبد القادر، الخطاب الحجاجي في الفكر النقدي المعاصر "البلاغة والسرد لمحمد مشب الأنموذج"، إشراف: سعيد عكاشة، أطروحة -تخرج لنيل شهادة دكتوراه في النقد الحديث والمعاصر، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة جيلالي اليابس، 2008-2017.

✓ مالك بن نبي، شروط النهضة، ط11، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012.

✓ محمد أبو الفضل جمال الدين ابن منظور، لسان العرب، ط3، دار صادر، بيروت-لبنان، 1994، مج2.

✓ محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، (د.ط.)، إفريقيا الشرق، المغرب، 1999.

✓ محمد الولي، الحجاج مدخل نظري تاريخي، ضمن كتاب "الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسة نظرية وتطبيقية محكمة في الخطابة الجديدة"، مجموعة مؤلفين، ط1، ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر، ودار الروافد الثقافية، بيروت-لبنان، 2013.

✓ محمد سالم محمد أمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت-لبنان.

✓ المرادي، الجني الداني في حروف المعاني، ط1، تح: فخر الدين قباوة، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 1992.

✓ الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد، مجمع الأمثال، (د.ط.)، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (د.ت.).

• المقالات:

✓ أبو الزهراء، دروس الحجاج الفلسفي، مجلة الشبكة التربوية الشاملة فيلومتريل الالكترونية..

✓ عبد الله ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج الخطابة الجديدة لبرمانوتيتيكا، كلية الآداب، منوبة.

✓ محمد الولي، مدخل إلى الحجاج أفلاطون وأرسطو وشاينبيرلمان، عالم الفكر، المجلد 40، العدد2، 2011.

✓ محمد الطياوي، أصول نظرية الحجاج عند العربي بين الممارسة والتنظير، مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها، العدد 21، ماي 2018.

8. هوامش البحث:

¹حسن خميس الملخ، الحجاج في الدرس النحوي، مجلة عالم الفكر، ع2، م40، أكتوبر - ديسمبر 2011، ص124.
2Voir: Breton philippe, l'argumentation dans la communication, edition du casbah, alger, janvier 1998,p3.

3أبو الزهراء، دروس الحجاج الفلسفي، مجلة الشبكة التربوية الشاملة فيلومتريل الالكترونية، 2008، ص5.

Dominique Maingueneau : Pragmatique pour le Discours Littéraire, Bordas, Paris, 1990, p35.4

5قعموسي عبد القادر، الخطاب الحجاجي في الفكر النقدي المعاصر "البلاغة والسرد لمحمد مشب الأنموذج"، إشراف: سعيد عكاشة، أطروحة -تخرج لنيل شهادة دكتوراه في النقد الحديث والمعاصر، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة جيلالي اليابس، 2017-2018، ص37-38.

6أرسطو طاليس، الخطابة، تر: إبراهيم سلامة، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، ط1، 1950، ص102.

7محمد الولي، الحجاج مدخل نظري تاريخي، ضمن كتاب "الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسة نظرية وتطبيقية محكمة في الخطابة الجديدة"، مجموعة مؤلفين، ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر، ودار الروافد الثقافية، بيروت-لبنان، ط1، 2013، ص82.

8 Oswald.ducrot,jean claud Anxmlre ;l'argumentation dans la langue piermardaga ; editeur2 ; galerie des princes 1000 bruxelles ;p07.

9قدور عمران، محاضرات في تحليل الخطاب، المدرسة العليا للأساتذة في الآداب والعلوم الإنسانية، بوزريعة-الجزائر، (د.ط.)، (د.ت.)، ص84.

10أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، ط1، 1426هـ 2006م، ص14

- 11 محمد الولي، مدخل إلى الحجاج أفلاطون وأرسطو وشاينبيرلمان، عالم الفكر، المجلد 40، العدد2، 2011، ص33.
- 12 خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مع محاولة لتأصيلها في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة، الجزائر، ط1، 2009، ص107.
- 13 فيليب بروتون، جيل جوتييه، تاريخ نظريات الحجاج، تر: محمد صالح ناهي الغامدي، مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبد العزيز، ط1، 2011، ص41.
- Chaimperelman, rhétoriques, p99، 14، نقلا عن: محمد الوالي، مدخل إلى الحجاج: المرجع السابق، ص33.
- 15 محمد سالم محمد أمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت-لبنان، ص107-108.
- 16 أبو الحسن أحمد بن فارس زكريا، "مقاييس اللغة"، تح: محمد هارون، ط1، مج2، دار الجيل، بيروت، 1411هـ-1991، ص30.
- 17 ابن سيدة، المحكم والمحيط الأعظم، تح: عبد الحميد هنداي، بيروت-لبنان، دار الكتب العلمية، مادة حجج.
- 18 علي بن محمد بن علي الجرجاني، التعريفات، تح: إبراهيم الأنباري، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، ط1، 1405هـ، ص112.
- 19 جار الله الزمخشري، أساس البلاغة، ط1، دار صادر، بيروت، 1412-1992، مادة حجج، ص19.43.
- 20 محمد أبو الفضل جمال الدين ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت-لبنان، ط3، 1994، مج2، مادة (حجج)، ص228.
- 21 السابق، ص288.
- 22 إبراهيم مصطفى، أحمد حسن الزيات، حامد عبد القادر، محمد علي النجار، المعجم الوسيط، ج1 المكتبة الإسلامية، ط2، (د.ت)، ص106-107.
- 23 جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، (د.ط)، 2000، ص126.
- 24 عباس أرحيلة، الأثر الأرسطي في النقد والبلاغة العربيين في حدود القرن الثامن الهجري، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ط1، 1999، ص277.
- 25 محمد الطياوي، أصول نظرية الحجاج عند العربي بين الممارسة والتنظير، مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها، العدد 21، ماي 2018، ص155.
- 26 الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد، مجمع الأمثال، تح: محمد مي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (د.ط)، (د.ت)، ص102.
- 27 محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، إفريقيا الشرق، المغرب، (د.ط)، 1999، ص194.
- 28 محمد العمري، المرجع نفسه، ص200.
- 29 ينظر: عبد الله الهلول، الحجاج الجدلي: خصائصه الفنية وتشكلاته الأجنبية، في نماذج من التراث اليوناني والعربي، قرطاج للنشر والتوزيع، صفاقس-تونس، ط1، 2013، ص(208-209).
- 30 طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، ط1، 1998، ص213.
- 31 طه عبد الرحمن، المرجع نفسه، ص235.
- 32 طه عبد الرحمن، المرجع نفسه، ص215.
- 33 <https://www.aljazeera.net/encyclopedia>
- 34 مالك بن نبي، شروط النهضة، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، ط11، 2012، الغلاف الخلفي.
- 35 أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، الدار البيضاء-المغرب، ط1، 2006، ص24.
- 36 أبو بكر العزاوي، المرجع نفسه، ص65-66.
- 37 عبد الهادي الشهري، استراتيجية الخطاب مقارنة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد، (د.ط)، (د.ت)، ص472-473.
- 38 مالك بن نبي، شروط النهضة، ص21-22.
- 39 المرادي، الجني الداني في حروف المعاني، تح: فخر الدين قباوة، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 1992، ص616.
- عبد الحميد بن ظاهر الشهري، استراتيجيات الخطاب الإقناعي-مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد، ليبيا، ط1، 2004، ص512.
- 40
- 41 مالك بن نبي، شروط النهضة، ص25-26.
- 42 المرجع نفسه، ص28.
- 43 المرجع نفسه، ص44.
- 44 المرجع نفسه، ص47.
- 45 عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجية الخطاب، ص478.

- ⁴⁶مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 28.
- ⁴⁷أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج ، العمدة في الطبع، الدار البيضاء.المغرب، ط1، 1426-2006م، ص20-21.
- ⁴⁸أبو بكر العزاوي، الحجاج في اللغة، مجلة المنارة، الصفحة الثقافية، الثلاثاء 5 ديسمبر ص6، <http://www.almanarah.com>
- ⁴⁹أحمد عراي، البنية الحجاجية في قصة سيدنا موسى "عليه السلام"، مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية، جامعة السنييا، وهران، 2009، ص438.
- ⁵⁰طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص277.
- ⁵¹مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 20.
- ⁵²نفسه، ص 21.
- ⁵³مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 24
- ⁵⁴ينظر: عبد الله ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج الخطابة الجديدة لبرمانوتيتيكا، كلية الآداب، منوبة، ص 318.
- ⁵⁵صابر حباشة، التداولية والحجاج مداخل ونصوص، صفحات للدراسات والنشر، دمشق- سوريا، 2008، ص 50.
- ⁵⁶عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تح: محمد الفاضلي، المكتبة العصرية، بيروت- لبنان، ط2، 1999، ص88.
- ⁵⁷مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 22.
- ⁵⁸المرجع نفسه، ص 24.
- ⁵⁹المرجع نفسه، ص 25.
- ⁶⁰عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 14.
- ⁶¹مالك بن نبي، المرجع السابق، ص 19.
- ⁶²المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- ⁶³المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- ⁶⁴المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- ⁶⁵المرجع نفسه، ص 23.